مقالات العمران

قسم العمارة وهموم الوطن

د.م. فريد صبح القيق

رئيس قسم الهندسة المعمارية

مما لا شك فيه بأن الواقع السياسي الذي يفرضه الاحتلال على قطاع غزة ينعكس على كافة مناحي الحياة الفلسطينية. ولكن الظرف الراهن بما يحمله من حصار وإغلاق يترك آثاره بشكل واضح على فئات المهندسين على اختلاف تخصصاتهم. وما من شك بأنهم كانوا من أكثر الفئات تضرراً خاصة بعد سد منافذ القطاع أمام مواد البناء وما تبعه من شلل تام في قطاع الإنشاءات. إن هذه الهجمة التي يتعرض لها المهندس الفلسطيني هي تجسيد لما يمثله المهندس والقطاع الهندسي من قوة مؤثرة على الساحة الفلسطينية. وبتجميد دوره يعتقد المحتل أن باستطاعته أن يفت من عضد المجتمع الفلسطيني ويكسر شوكة الصمود والمقاومة. فصحيح أن الحصار يؤثر سلباً على مجمل قطاعات العمل وكافة شرائح المجتمع الفلسطيني. ولكن قطاع الإنشاءات وبما يمثله من قوة إنتاجية ونسبة تشغيل عالية يشكل رافعة أساسية للاقتصاد المحلي. وأي ركود في هذا القطاع لابد وأن يترك أثراً واضحاً على باقي قطاعات العمل. خصوصاً وأن قطاع الإنشاءات يرتبط به العديد من الحرف والمهن الهندسية المساعدة. لذلك كان لابد لمجتمع المهندسين ممثلين بنقابتهم الغراء أن يأخذوا بزمام المبادرة لقناعة النقابة بأن هناك الكثير الذي يمكن عمله للتعامل مع هذا الواقع والذي يتطلب ضرورة تكاثف جهود كافة المؤسسات المحلية العاملة في المجالات الهندسية المختلفة بما يقلل قدر الإمكان من الأضرار الناشئة نتيجة لهذا الحصار الظالم على القطاع. لذلك كان لابد للمهندسين أن يطلقوا الفعاليات التي يتحدون بها هذا الواقع عبر العديد من الفعاليات الهندسية المتميزة والتي كان آخرها الإعلان عن الأسبوع الهندسي السادس والذي يعتبر الإعلان عنه برغم كل المعوقات والصعوبات خير دليل على فشل الاحتلال في تهميش هذه الفئة الطليعية في الواقع الفلسطيني أو محاولة ثنيها عن القيام بدورها الريادي في المجتمع. ولم يكن محض صدفة أن يكون الأسبوع بعنوان "المهندس ومقومات الصمود" وأن يكون محور القدس على سلم الأولويات. وبما أن للعمل النقابي رجالاته الذين نثق بهم وبعزمهم على تحمل المسئولية الملقاة على عاتقهم في هذا الظرف الصعب. فدعونا اليوم نتحدث وبحكم موقعنا في قسم الهندسة المعمارية عن مهندسي المستقبل، طلبة الكلية وقسم العمارة بالتحديد وكيف يتفاعلون مع متطلبات المرحلة وهموم الوطن. ولنأخذ مثالاً لذلك ما عايشه الطلبة خلال هذه السنة فقط. ولنبدأ بهذه الحكاية. حين اتصل بي أحد الطلبة الخريجين وسيل الدموع يتدفق عبر سماعة الهاتف ليبلغني باستشهاد أحد زملائه الخريجين. وكم كان ملفتاً التعاضد الذي أبداه طلبة القسم وأعضاء الهيئة التدريسية والذين كانوا بحق كما وصف رسولنا الكريم (عليه أفضل الصلاة والتسليم) كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وكان لابد وأن تلقي هذه الشهادة بظلال وارفة على مناقشات مشاريع التخرج، حيث قرر قسم الهندسة المعمارية أن يطلق على فوج خريجي القسم لعام 2008 "فوج الشهيد يحيى جبر". كان لابد أن نذكر هذا الطالب المميز الذي حصل على شهادة ليس ككل

الشـــهادات، شـــهادة اصطفاها له رب العالمين. وهل بعد ذلك من تميز. صحيح أننا نفتخر بـتخريج أبـناءنا الطلبـة ولكن افتخارنا واعتزازنا يكون أكبر بكثير حـينما يتخرجون بشـهادة توصل بـإذن اللّه إلى الفردوس الأعلى. وكـم كـان مؤثـراً تواجـد والد وأسرة الشهيد بيننا والذي نسـأل اللّه أن يجزيهم خير الجزاء على هذه التربـية الصالحة التي انبثقت من حضن المساجد وترعرعت في روضة القـرآن ثم توجت بالشـهادة. أذكر ذلك الموقـف يوم خالجتني العبرات وأنا أخاطب زملاء الشـهيد بهذه الكلمات:

اليوم ليس يومكم
إنه يوم الشهيد
إرفعوا الأقلام والأوراق جانباً
ودعوا الحروف تكتب من جديد
فهذا العز والفخار لا يوثق إلا بدمع القلب ونور مجيد
فهيا قوموا
وانقشوا على جدران الشهادة
اسماً يحيى فيكم عمراً مديد
وإن عزت الأحبار في بلادكم
فخذوا من دماء يحيى مداداً
وسطروا مجداً تليد

ولا شك بان ذكرى الشهيد ستبقى نبراساً يرسم لنا معالم دربنا فالشـهادة قبـلة المصطفين من المؤمنين ومقـصد الطامحين إلى رضوان اللّه ورضاه. وستبقى ذكرى الشـهيد مصدر عز وافتخار لهذا القسم المعطاء والذي قـدم ومنذ نشـوءه في كل مرحـلة من مراحـل النضال الفلسـطيني شـهيداً ازدانت بـه سماء الوطن. هم في سـويداء القـلوب وبـؤرة الذاكرة. والمسيرة بـإذن اللّه مسـتمرة حـتى تحرير الأوطان والمقدسات وسيل الشـهداء متواصل حـتى زوال الاحـتلال عن أرض الرباط .أما على صعيد الدور الذي قام بـه طلبة القسـم لمواجهة هذا الواقـع. فكان لابـد أن نسـتثمر جهود الطلبـة في المساهمة في تحسـين البـيئة العمرانية ومؤازرة بـلديات ومؤسسـات القـطاع المختلفة في جهود البـناء والتعمير. حـيث قـام القسـم بالتوقـيع على العديد من الاتفاقيات التي تتعلق بإنجاز طلبة القسم لمشاريع حيوية مختلفة لبلديات القـطاع. حيث تم التوافق مع بلدية بيت حـانون على إعداد طلبـة القسـم للمركز الثقـافي والمجمـع التجـاري المركـزي للمدينـة. والمسـاهمة في إعادة تطوير مركز مدينة بيت حانون ومسجد أم النصر بـعد هدمه من قـوات الاحـتلال. ومع بـلديتي البريج والمغـازي كـان هنـاك تعـاون يهـدف إلى تخطيـط مناطـق عمرانيـة هامـة ضمـن الحدود الإدارية للبلديتين. حيث عمل طلبـة القسـم ضمن مسـاق تخطيط عمراني على إنجـاز مخططـات تفصيليـة لمجـاورات سـكنية مبـنية على أسـس تصميمية سليمة وبشكل يضمن التطوير العمراني للمنطقـة بـناءً على معايير تخطيطية متوازنة تلبي احـتياجات السـكان من المرافق والخدمات العامة في بيئة معيشية توفر كل عوامل الأمن والسـلامة والراحـة للمواطنين وتضمن التفاعـل الاجتماعـي البناء وتحقيق أماكن لقضاء أوقـات الفراغ في أحواء صحـية وملاعب رياضية ضمن مناطق خضراء تدعم حركة المشاة بـعيداً عـن المواصـلات وعوامـل الضوضـاء والإزعاج. كذلك فإن هذه المشاريع تكتسب أهمية كبيرة بالنظر إلى أنها تقدم معالجة لمسـألة تطوير مناطق المخيمات في المدينتين بما يحفظ خصوصية الواقـع العمراني للمخيم كرمز من رموز القـضية الوطنية. وللمساهمة في تحسين الخدمات الاستجمامية والتي تحاول من خلالها إيجاد متنفس لسكان القطاع يعزز من مقومات صمودهم ويجدد نشـاطهم كان التعاون مع بـلدية خان يونس لإعداد مخططات تفصيلية لمشـروع المتنزه الإقـليمي في المدينة. بـالإضافة إلى مذكرة تفاهم مع شبـكة الأقـصى للإنتاج الفني والإعلام لتخطيط وتصميم مدينة أصداء للإنتاج الإعلامي. كذلك كان لابد للقدس أن تكون حـاضرة في أذهان الطلبـة. فلا الحصار ولا الإغلاق يمكن أن يشـغلنا عن الاهتمام بهذه القـضية المركزية على مسـتوى الوطن. لذلك كانت هناك مساعي حثيثة من مدرسي القسم سـواء عبر محاضرات عامة توضح الأخطار المحدقـة بمدينة القدس أو عبر دراسات بحثية تحاول تشـكيل إطـار دائـم مـن المعماريين لخدمـة هـذه القـضية الوطنية الهامة. أما بالنسـبة للحـصار فقـد كان لطلبـة القسـم إسـهامات متميزة في المسابقـة المعمارية التي تمت بـالتعاون مع اللجنة الشعبـية لمواجهة الحصار لإقامة معلم تذكاري يخلد ذكرى شهداء الحصار الظالم الذي يتسبب في معاناة كبيرة للآلاف من الفلسطينيين ونتج عنه استشهاد العشرات من المرضى

قسم العمارة وهموم الوطن

بعد منعهم من تلقي العلاج في الخارج، ليُبقي هذا المعلم هذه الحقبة حية في ذاكرة المجتمع الفلسطيني.

كذلك كان هناك جهد مميز للتواصل مع جامعة ماليزيا للعلوم، ورغم الحصار تم توقيع اتفاقية تعزز التواصل مع المؤسسات الأكاديمية الدولية بهدف تبادل الخبرات، وتعميق التواصل مع العالم الخارجي، حيث تتضمن الاتفاقية الاستفادة من التجهيزات العلمية المتطورة المتوفرة لدى الكلية الماليزية والاستعانة بالاختصاصين الماليزيين في الإشراف على مشاريع تخرج طلبة برنامج الماجستير المزمع افتتاحه في قسم العمارة العام القادم بإذن الله لاستلهام التجربة الماليزية المتقدمة في البحث العلمي والتكنولوجي. ولم ننسى في هذا الخضم من تذكر فئة ذوي الاحتياجات الخاصة بمحاضرة تلفت الانتباه إلى جانب إنساني مهم يستطيع من خلاله طلبة القسم أن يسهموا في المساعدة في تخفيف أعباء هذه الفئة الهامة عن طريق موائمة البيئة الحضرية لمتطلباتهم بما يعزز من دورهم في المجتمع ويوفر لهم سبل العيش الكريم وخاصة أن هذه الفئة تشمل العديد من حالات الإعاقة الحركية التي نتجت جراء الاعتداءات الصارخة من قبل قوات الاحتلال على حقوق المواطن الفلسطيني .وأخيرا يبقى القسم ورغم كل الظروف معطاءً بتواصل إصدار مجلة العمران والتي هي خير شاهد على إبداعات هذا القسم وعطائه اللامحدود. فحينما صدرت المجلة لم يكن أحد يتوقع أن المجلة ستحقق هذا النجاح الكبير وتزدهر بهذا الشكل وتغزو الآفاق وتصبح علماً من أعلام الجامعة الإسلامية. ولكن بالتصميم والإرادة والجهود المخلصة لجميع الإخوة القائمين على المجلة وبالتوكل على الله، كانت المجلة تكسب أراضي جديدة مع كل إصدار. هذه المجلة التي ألهمت احد منظري العمارة في عصرنا الحديث الدكتور وليد السيد أن يكتب مقالة غاية في الروعة والجمال، مقالة تستحق أن تكون وساماً على جبين كل طالب وطالبة في قسم العمارة بالجامعة الإسلامية، بل على جبين كل فلسطيني وفلسطينية على ثرى الوطن الغالي. أذكر عندما وقف رئيس الجامعة الدكتور كمالين شعث في إحدى المناسبات وتهدج صوته تأثراً حينما تذكر هذه الكلمات. وإليكم بعض هذه المقتطفات من هذه المقالة الرائعة في مقال عنوانه: "ألف تحية لمجلة العمران العمرانية". فقد وصف الدكتور السيد في مقاله مجلة العمران بكونها رمزاً فلسطينياً للمثابرة والكفاح في أقسى الظروف، وأثنى على ذلك باعتباره ميزة المثقفين الفلسطينيين في الداخل والخارج. وتحدث الدكتور السيد عن اليتم الذي يعيشه المفكر والمثقف الفلسطيني في الداخل والخارج حتى أضحى لا أب له. ومضى الدكتور السيد قائلاً: "المجلات العمارة الأخرى "المدللة" مادياً ألف أب أما الجامعة الإسلامية فمجلتها "العمران" يتيمة لا أب لها. معظم مجلات العمارة الأخرى ترفل في الحرير والترف المادي والدعم المؤسسي. أما مجلة العمران فتتمة وغريبة عن كل ذلك". وتابع الدكتور السيد: "وبالرغم من هذا فهناك مفارقات يمكن تبينها بين "العمران"، وبين بعض هذه المجلات "المترفة". بدا الدكتور السيد كأنه يشير إلى أنه رغم اليتم يمكن للإنسان أن يكون معطاءً، حتى وإن شحت الموارد المتاحة، فلن يثنيه ذلك عن الإبداع. وقد أبدى الدكتور السيد انبهاره بالمجلة، وتبين ذلك من قوله: "يا للعجب وأي عجب! ألف تحية لكم فهاماتكم شامخة بإباء تطلب العلم برغم المعاناة، وقسوة الظروف". وعبر الدكتور السيد عن عجبه لما رآه من أعمال طلاب وطالبات قسم العمارة خاصة وأن الأعمال شملت السنوات الثلاث الأولى. وكشف الدكتور السيد في مقاله أنه أرسل صفحات المجلة عبر الإنترنت لبعض أصدقائه العرب في دول الجوار، ومنهم صديق عماني عالي الثقافة، ويهوى الفن الإسلامي والعمارة، وشدد الدكتور السيد على أن صديقه قد راعه ما رأى من أمر مجلة العمران، فأرسل إليه رسالة قال فيها: "عجباً لهؤلاء القوم بفلسطين وهم تحت ظروف المعاناة ينتجون هكذا إنتاج. وقد عقب الدكتور السيد في مقاله على رسالة صديقه العماني قائلاً: "لم يجانب صديقي الصواب فالعجب كل العجب. وتحية ألف تحية لكم يا أمراء وأميرات العزم والعزيمة، ومضى الدكتور السيد تعقيبه بالقول: "طوبى لشعب أنتم أبناؤه يا طلاب وطالبات الجامعة الإسلامية بغزة، ومرحى لكم يا من تنقشون في الحجر طلباً للعلم."■